مكسيم غوركي

الدكتورة : وفية ابو قـــلام
قسم اللغـة العربية

الخلاصـة :

يتضمن بحثنا هذا ، مقدمة سريعة عن حياة مكسيم غوركي منذ طفولته حتى المرحلة الاولى من مراحل نتاجاته الادبية ، هذه النتاجات التي استهدف من ورائها الى التمسك بالتعبير عن الطبقات المسحوقة . وفي هذا البحث ايضا ، تناولنا بالنقد والتحليل ، اهم الجوانب الفنية التي امتازت بهـــا قصته الاولى « ماكار تشودرا » ومن ثم قصته «يزيركيل العجوز » و «انشودة عن الصقر» و «الجرس» و « حياة رغيدة » و « الانتقام » و « المقابلة » و « وسبيل الملل » و « الخـــان وولده » و «جلكاش» و «فوما كورديف» وروايته «الثلاثة» و «عن الرصاصي » وفي هذه الفترة ايضا . ألف غوركي كتابه المشهور « ملاحظات عن البورجوازية ». وقد فند غوركي في كتابه هذا آراء النقـــاد التحريفيين وانصار المذهب المنحط « ديكادانت » وكل التيارات البورجوازية والرجعية في زمانه .

لقد عاش مكسيم غوركي حياة مجيدة سامية ، ويكمن خلوده في كفاحـــه من اجل تحرير وطنه وشعبه ، وفيما انتج من مؤلفات ثورية وواقعية ..

وبدأ غوركي يشق طريق حياته الادبية في نهاية القرن التاسع عشر . وذلك في فترة ازدهار الواقعية الكلاسيكية الروسية . وفي فترة سبقت مباشرة بدايـــة مرحلة جديدة من مراحل تطور الادب الاشتراكي ، والاساليب الجديدة للمؤلفات الواقعية الاشتراكية ، كما نجد بان مؤلفاته قد شقت طريقها في السنوات التي سبقت

بداية المرحلة الثالثة من مراحل تطور الحركة التحررية البروليتارية الروسية .

وقد ادرك تولستوى عظمة غوركي ودوره الفعال في مساندة الحركات الثورية في روسيا فشبهه هذا التشبيه الرائع حين قال : «كان مكسيم غوركي كوكبا عظيما لثلاثة عهود ثورية »[1] .

ومنذ السنوات الاولى من حياته عرف غوركي الجوع والفاقة وشظف العيش ومرارة الاضطهاد والظلم الاجتماعي ، وعاش نفسه هذه الحياة وعانى ما عانى من الجوع والعذاب لذا فلا عجب ان نرى بان اهم الاهداف التي وضعها نصب عينيه وهو يكتب مؤلفاته الاولى ، هو ان يجسد حياة الشعب الروسى الكادح الجائع في السنين التي سبقت ثورة اكتوبر الاشتراكية .

وقد قطع غوركي روسيا طولا وعرضا مشيا على الاقدام . وخلال تجواله في ارض وطنه فهو لم يقابل الاوحال والدنس والابتذال والتفاهة والخسة واللؤم وانعدام العدالة ، والفاقة والجوع فحسب ، بل قابل في تجواله ايضا ابناء شعبه وهم يكدحون ويمارسون اعمالا فوق طاقتهم ، الا ان حياتهم هذه رغم تعاستها كانت تحمل الضوء والسعادة والافراح . ومن خلال فقرهم ، كان غوركي يرى الحياة ضاحكة رغم بؤسها ، رائعة رغم قساوتها ، ودفعه هذا التجوال الى دراسة حياة الشباب والرجولة والفطنة والحكمة التي كانت تتمتع بها الجماهير الروسية ، كما تعرف على صلابة هذه الجماهير التي لم تتزعزع امام اقوى العواصف وقد غدت هذه الصلابة المنبع الذى استقى منه غوركي حماسه ، فاندفع بظمأ لا ينطفىء وروح لا تخمد للنضال من اجل تحرير انسان بلده .

ولد غوركي في استرخان في مارت سنة ١٨٦٨ . وبعد ان توفي والده رحل مع والدته من استرخان ليسكن معها في دار جده . وتعاون جده ووالدته على تعليمه القراءة ومنذ سنة ١٨٧٨ ، وبعد وفاة والدته دخل غوركي حياة الناس وعمره عشر سنوات ليعمل ويكافح من اجل ان يعيش . فاشتغل خادما في مخزن للاحذية ، وصانعا لغسل الصحون في احدى البواخر الروسية ، وبعد

---

(١) أ . ن . تولستوى . من مقال « فنان ثلاثة عهود ثورية » . نقلا عن كتاب غوركي في ذكريات معاصريه . موسكو ١٩٥٥ ، ص ٤٧ « بالروسية » .

فترة دخل كطالب في ورشة لرسم الايقونات ، ثم خدم عند احد الرسامين ، وبعد فترة عمل كممثل ثانوى في احد المسارح .

ان غوركي كاتب المستقبل قد عاش صباه في ظروف قاسية غير ملائمة لتطوره النفسي ، في الوقت الذى كان فيه تيار الحياة يسير في الجهة المعاكسة التي كان يسير فيها هذا الفتى المكافح ، الا ان هذه السنين التي لذعته بمرارتها ، وقلبته على نارها ، دفعته من الناحية الاخرى الى فهم حقيقة الحياة المحيطة به من خلال تجاربه وهو يجوب الارض ، كما استشف هذه الحقيقة من بين اكداس الكتب التي كان يقرأها باهتمام بالغ ، مما جعله ينظر الى شعبه المعذب نظرة جديدة .

ودخل في حياة غوركي في هذه الفترة الطباخ الطيب ميخائيل سمورني الذى لعب دورا كبيرا وهاما في التطور الروحي لمكسيم غوركي في مرحلة نموه . فهو الذى حفزه على حب القراءة والمطالعة خلال الفترة التي كان يعمل فيها غوركي كخادم لغسل الصحون معه . وقد ثمن غوركي دور هذه الشخصية المهمة في حياته ، في الكتاب الذى الفه عن طفولته ، والذى انتهى من تأليفه سنة ١٨٩٧ . واهم ما وصفه به هو : « انه شخصيا اسطورية .. حسن ، وقارىء ممتاز ، وقد اثار في الرغبة لقراءة الكتب ... وكان عنده صندوق كامل مملوء غالبا بالمجلدات الصغيرة »[٢] .

وعندما بلغ غوركي السادسة عشرة من عمره رحل الى قازان سنة ١٨٨٤ . وقد وضع نصب عينيه هدفا رئيسيا هو ان يتعلم ويتثقف كي يحقق اجمل احلامه . وقد كتب في فترة متأخرة من حياته قائلا : « لو انهم رشحوني للدراسة وقالوا : اذهب وادرس . ولكننا بعد الترشيح سنضربك بالعصى في ساحة نيكولايفسكي يوم الاحد فلربما وافقت على هذا الشرط » . الا ان غوركي لم يوفق الى دخول المعهد للدراسة ، فحرم بذلك من اجمل حلم اراد ان يحققه في مطلع حياته . وبدلا من ان يتعلم ، فقد عمل في قازان حمالا للحطب ، وكناسا ، وبوابا ، وجنائيا . وفي هذه الاثناء كان يتردد على دكان احد البقالين واسمه «ديرينكوف»

---

(٢) م . غوركي المؤلفات الكاملة . الجزء ٢٣ ، موسكو ١٩٥٣ ، ص ٢٧٠-٢٧١ « بالروسية » .

حيث كان يجتمع على دكة دكانه مجموعة من الشباب من ذوى الميول والاتجاهات الديمقراطية ، ليتمكن من التقرب والتعرف على الطلاب الثوريين • وكان يصغي الى مناقشات الطلاب والشباب التي لا تنتهي حول الطرق التي ستؤدى الى قيام الثورة في روسيا ، وعن الادوار الحاسمة التي ستلعبها هذه الثورة في التاريخ • الا ان هذه المناقشات لم تقو على اشباع رغبته في حب الاستطلاع ، فهو من صميم قلبه كان يتطلع نحو النضال لتحرير شعبه • غير انه لم يستطع ان يتوصل في هذه الفترة الى الاساليب التي يجب اتباعها لتغيير الحياة في مثل تلك المرحلة من حياته• ولذلك فقد ظل ظامىء الى التعرف على اناس جدد يرتبط بهم ويتجه معهم نحو تحرير شعبه من الظلم والاستبداد القيصرى •

وفي صيف سنة ١٨٨٨ ارتبط غوركي بالمواطن الثورى «روماسيم» حين كان يخدم كوزان في السكك الحديدية في قازان • وقام بتنظيم حلقة عفوية من العمال الشباب • وفي سنة ١٨٨٩ جرب تأسيس اصلاحية «مستعمرة» زراعية • وظل يرغب في التعرف على الشعب بشكل افضل ، وفي نفسه رغبة قوية للتعرف على طبيعة الحياة في رحاب روسيا الواسعة •

وفي هذه الفترة من حياته بدأ غوركي بكتابة الشعر ففي سنة ١٨٨٩–١٨٩٠ كتب قصيدته التي عنوانها «انشودة شجرة السنديانة القديمة» وقدمها الى ف•ك• كورولينكو الموسيقي الاعمى ، ليطلع على اول نتاج من نتاجاته الادبية ، فاكتشف فيه كورولينكو ذلك الكاتب الذى يتمتع بمواهب وامكانيات خلاقة لا يمكن الشك فيها ، مؤكدا على وجود ابيات خاصة مستقلة تمتاز بالقوة والوضوح ، الا انه لاحظ بان القصيدة ككل لم تكن ناجحة تماما • وقد احرق غوركي قصيدته هذه•

وفي سنة ١٨٩١ رحل غوركي الى جنوب روسيا ، ومن ثم سافر الى اوكرانيا ، وانتقل بعد فترة الى قفقاسيا ، وعاش فترة من الزمن في تبليس • وفي رسالة بعثها الى صديقه بافل ماكسيموف كتب يقول : « كان رحيلي لا سعيا الى التجوال ، ولكن رغبة مني بأن ارى واعيش والناس يحيطون بي»(٣) •

---

(٣) بافل • ماكسيمون : كتاب عن غوركي • راستوف نادانو ١٩٣٩ ، ص ٢٤ « بالروسية » •

وفي هذه السنة بالذات اشتغل غوركي كعامل ماهر في سكك حديد تبليس، وفي هذه الفترة ، لعب أ٠م٠ كاليوجني دوره الكبير في تشجيع غوركي ودفعه الى الامام • وبناء على الحاجة فقد عاد غوركي الى الكتابة ثانية ، فألف اول اقاصيصه الا وهي «ماكارتشودرا» •

لقد انجذب غوركي نحو الطبقة العاملة ، وكان يشعر بالسعادة وهو يعيش معهم ويكافح الى جانبهم • وكان لهم اعظم الاثر في توجيه مجرى حياته ككاتب ثورى في المستقبل ، كما تركت الفترة التي قضاها في تبليس اثرها المعنوى في نتاجات هذا الاديب الخالد • ففي هذه المدينة تعرف على ميول وعقلية العمال الثوريين ، واصبح اكثر اقترابا منهم وتعاطفا معهم ، وفي تبليس ايضا ، بدأ يشق طريقه ككاتب قصة ففي٢٥ ايلول ١٨٩٢طبعت مجلة «قفقاسيا» قصة«ماكارتشودار» وقد كتب غوركي عن هذه الذكرى الجميلة في مذكرات حياته في هذه الفترة قائلا : « سوف لن انسى ابدا ـ وبشكل خاص بان في هذه المدينة انجزت اول خطوة لم اكن واثقا منها في هذا الطريق الذى اسير فيه منذ اربعين عاما ـ ويمكنني الظن بان الطبيعة السنجابية لهذه البلدة بالذات ورومانسية ولطف شعبها ـ هاتان القوتان بالذات منحتاني الهزة التي صنعت من تجوالي وتشردى ـ ادبا»(٤) •

ويمكننا القول بان كل ما في اقاصيص هذا الكاتب الشاب كان جديدا وطريا ، وغير مألوف بالنسبة لهذه الفترة • والذى لاحظناه في نتاجاته المبكرة في هذه المرحلة ، بان المناظر الطبيعية وهي تتألق بالوانها البراقة الزاهية • قدائرت تأثيرا كبيرا على اقاصيصه المبكرة ، واسبغت عليها مسحة رومانسية محببة • وعملت على تنشيط مخيلته ، وهو بجوار البحر والسهول الخضراء المنبسطة على مدى البصر • وقد تمازجت الوانها مع اشعة الشمس المنعكسة عليها لتكون الوانا عجيبة•اوحت لغوركي بان الطبيعة اجمل ما في الكون • وكان غوركي يحب ان يجسد روعة هذه الطبيعة في مثل هذه اللحظات التي كان يحاول ان لا تفلت منه، ولذلك فقد كان يقول :

« السعادة هنا في هذا المكان » •

---

(٤) م • غوركي : المقالات الاجتماعية • موسكو ١٩٣٣ ، ص ٢١٠ «بالروسية» •

الا ان الطبيعة عند غوركي لم تكن تعني المتعة المجردة فحسب بل ان الطبيعة عند غوركي كما يقول لونجارسكي : « تدعو للحياة ، للكفاح واللذة والمتعة والهناء والتكاثر والتناسل »(٥) . الا ان غوركي في اللحظات التي كان يعكس فيها جمال الطبيعة من حوله لم ينجح الى حد كبير بنقل جل مشاعره الى ابطاله الذين لم نستطع ان نستشف ما في اعماق ارواحهم بوضوح ، ولكن هؤلاء الابطال في الوقت ذاته نجحوا في التأثير علينا وجذبنا نحوهم والتعاطف معهم ، هذا بالاضافة الى اننا ونحن نقرأ نتاجات غوركي الرومانسية نحس باشياء جديدة غير معروفة ، وفريدة في نوعها ، رائعة ومشوقة .

وهناك حقيقة يجب التأكيد عليها هنا ، وهو ان مؤلفاته الرومانسية المبكرة لم تكن ترمز بالمرة الى انعزاله عن المجتمع ولا على هروبه من الحياة الواقعية او الانصراف عن ادراك حقيقتها . ففي اقاصيصه «ماكار تشودرا» و «بزبركيل العجوز» و «انشودة عن الصقر» يبدو التصاقه بالواقع واضحا ، الا انه قد لجأ الى التسليم بوضع ابطاله في اطار محدود ، باستثناء نماذج ابطاله الرئيسيين . كما تواجهنا في هذه الاقاصيص نماذج من الابطال الذين تبنوا دور الرواة في سرد الحوادث ، بالاضافة الى ما سرده الكاتب نفسه . والواقع ان هؤلاء الابطال قد ابدعوا في عرض التفاصيل الجزئية للحياة والطبيعة امامنا ، بكل دقة ، ونجحوا في ان يتركوا في اذهاننا انطباعات اصيلة وصادقة لم نألفها لدى غيره من الكتاب ، كما نجد ذلك واضحا في قصته «ماكار تشودرا» .

وهناك خصائص مهمة اخرى امتازت بها مؤلفاته في هذه الفترة ، وهو ان التحليل الفني في وصف التفصيلات الجزئية بدقة ، كان لها صلة بالاساطير الخرافية التي امتزج فيها الخيال بالواقع الحياتي وهو ما نقابله بوضوح في قصته «يزبركيل العجوز» و «انشودة عن الصقر» هذا بالاضافة الى ان هذه التفصيلات الجزئية التي واجهتنا في نتاجاته الرومانسية لم تفقد هذه النتاجات خصائصها ومواصفاتها الفريدة في نوعها . وانها لن تحدث اى خلل او نقص في

---

(٥) أ.ف: لونجارسكي . الادب الروسي . موسكو ١٩٤٧ ، ص ٣٤٥ ، « بالروسية » .

وحدتها الفنية ، بل لقد زادت هذه التفاصيل من علاقة ابطالها بالحياة وبالواقع .

ان ارتباط رومانسية غوركي مع الحياة ، لم تنعكس فقط في اطار الواقع الذى وضعها فيه ، ولا انحصرت في التفاصيل التي عرضها امامنا ، بل نستطيع ان نشعر بها بشكل واضح في الاحاسيس التي عبر عنها ابطاله . اما في اقاصيصه التي لم تواجهنا فيها هذه التفاصيل الواقعية ، فبامكاننا ان نشير اليها مثلا في قصته : « الفتاة والموت » .

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر ايضا ، وهو ان غوركي منذ بداية نتاجاته الاولى قد سار عبر تطوره في اتجاهات مختلفة ، فهو قد كتب مثلا عن الروح البطولية لابطاله الاسطوريين وعن اندفاع وحماس ابطاله الرومانسيين . والف الاناشيد والحكايات الخرافية والاقاصيص الشعبية ، والقصص الواقعية ، وفيها عكس مختلف الظواهر الحقيقية الرومانسية ، كما جسد في الوقت ذاته قسوة الواقع الذى كان يعيشه ابناء وطنه ، ولذلك نرى بان مؤلفات غوركي ظلت لفترة طويلة من الزمن تمتزج فيها الواقعية الثورية بالرومانسية الثورية ايضا .

ان تبليس هذه المدينة الجميلة التي احبها غوركي لم يعش فيها طويلا ، فقد تركها ليرحل الى قازان حيث عمل موزعا عند المحامي لانين وهو يحلم ان يشتغل بالادب الذى كان قد اعتزله سعيا وراء لقمة العيش ، وفي سنة ١٨٩٣ استطاع ان يطبع العديد من مؤلفاته في قازان . وفي هذه السنة بالذات التقى غوركي ثانية بكورولينكو ، وقد قرأ هذا العلامة العديد من مؤلفاته الخطية واعجب بها هذه المرة وساعده على طبعها ، وبناء على نصيحة كورولينكو فقد رحل الى سمارة حيث اصبح فيها صحفيا محترفا يكتب المقالات والتحقيقات الصحفية والاقاصيص في مجلة (سمارة) وغيرها من المجلات التي كانت تصدر هناك ، ونشط غوركي سنة ١٨٩٧ فعقد راح يمنح مجلة «الكلمة الجديدة» ومجلة «افكار روسية» المزيد من مقالاته ، وقصصه . وفي سنة ١٨٩٨ خرج الى النور كتابه الذى عنوانه «مقالات وقصص» في جزئين ، وبمجرد صدور كتابه هذا فقد بدأ اسم غوركي يلمين بين جماهير القراء ، واخذ مجده يتصاعد كالعاصفة ، وكل كتاب جديد كان يصدر له سرعان ما كان يستقبله القراء بحماس ورغبة .

وبالاضافة الى ما كتبه من اقاصيص ومقالات هجائية ، ومجازات واستعارات فلسفية فانه ابدع في تصوير «النماذج الشبعى» التي عرى فيها بغضب وسخط ودعارة وفساد مثل هذه النماذج الوحشية التي لا تمل من الشبع على حساب الاخرين وفي قصته هذه كشف غوركي عن مشاعر هذه النماذج وافكارهم وما كان يجول في مخيلتهم من افكار ، وتلاها غوركي بكتابة قصته التي عنوانها «الجرس» وقصته «حياة رغيدة» .

وفي هذه الفترة نشط غوركي في كتابة المقالات الهجائية ، واهمها مقالته «ومع ذلك» و «تحقيقات تمهيدية» وقد طبعتها له (مجلة سمارة) سنة ١٨٩٥ . بالاضافة الى مقالاته الاخرى التي نشرها في مجلة «اوديسا الجديدة» سنة ١٨٩٦. وفي هذه المقالات تطلع على استنتاجاته العمومية الواسعة في وصف طبيعة الحياة الروسية ففي سنة ١٨٩٠ وما بعدها ، وكشف لنا عن التباين الواضح بين ابهة وترف الحياة الاجتماعية التي كان يتمتع بها الاغنياء من ذوى الاموال الطائلة ، وبين الغم والكرب الذى كان يعانيه سكان اوكرانيا ، فالتطور التكنيكي على مرى ، لم يخدم العمال بل جعلهم يعيشون في ظروف قاسية غير انسانية نتيجة لاستهتار الرأسمالية وتكليف العمال باعمال تفوق طاقتهء وقدرتهم البشرية ، وقد نجح غوركي في ان يزيح النقاب عن وجه الرأسمالية الروسية ، ويفضح مدى صفاقتها في استغلال العمال وظلمهم واضطهادهم .

وظل غوركي يكتب نتاجاته التقدمية دون انقطاع ففي سنة ١٨٩٦ الف قصته التي عنوانها «الانتقام» و «المقابلة» ، وفي سنة ١٨٩٧ كتب قصته «سبيل الملل» التي عرى فيها البرجوازية تعرية تامة . هذا بالاضافة الى العديد من اقاصيصه الاخرى كقصته المشهورة (جلكاش) و «الخان وولده» و «الجد ارخيب ولينكا» و «الغلطة» وفي قصصه هذه عموما نشعر باحاسيس مليئة بالنضج ، تعلن عن قرب حدوث انفجار هائل وهبوب العاصفة في المستقبل ، وان البسطاء من الناس هم الذين سيقذفون بانفسهم بعنف في وسط العاصفة ، ليهب بعدها الهواء صافيا طريا عذبا باردا . هذا بالاضافة الى ان قصص غوركي هذه كانت تمتاز بملامحها الدرامية الحادة . ورغم ان طابعها العام كان يتميز بمزجه بين الرومانسية

والواقعية • ومع ذلك فقد ظلت تختلف عن بقية نتاجاته الرومانسية والواقعيـــة الاخـــرى •

ويمكننا القول بان التوتر والانفعال بلغ اقصى درجـــات تطوره وتأثيره الدرامي العنيف فيهذه القصص ، وتبدو هذه الظاهرة على اشدها في قصتـــه «جلكاش» ففيها رسم لنا صورة واقعية للموانىء الروسية ، وبين لنا كيف كـانت البرجوازية تسرق الانسان وتستنزف عرقه وهو يعمل ليل نهار لاشباع جشعها •

ان ابطال غوركي الذى صورهم لنا ، لم يكتفوا بابراز مشاعرهم تجاه فساد الحياة العامة المحيطة بهم • بل انهم اظهروا احتجاجهم العنيف ضد مظالم السلطة وضد الفروق الطبقية ـ وجسد لنا مشاعرهم وهم يتطلعون نحو المستقبل ، ومما لاشك فيه ان احلامه التي عبر عنها على لسان ابطاله في تطلعهم نحو المستقبـــل الرائع ، انما كانت تعبر عن عقيدته في هذه المرحلة المبكرة من حياته ، الا اننـــا نعتقد بان هذه العقيدة والايمان بالمستقبل لم تكونا قد اقترنتا بعد بوعي معين او بادراك واضح ملموس ، وذلك لان الاساليب الواقعية التي اتبعها لبلوغ مثل هـذا الوعي التام • لم تكن آفاقها قد اتضحت امامه في هذه الفترة ، نظرا لانه لم يكن قد استطاع ان يتخلص بعد من اوهامه الرومانسية ، وانطلاقا من هذه الحقـائق فان غوركي وان نجح في ان يغرى ابطاله بالتطلع نحو الغد الاتي من اجل الانتقال بالشعب الى حياة سعيدة مضيئة ، الا ان جهوده هذه لم تتكلل بالنجاح ، وبهـــذه النقاط تنحصر المصاعب والتعقيدات التي واجهها في كتابة مؤلفاته في نهاية القرن التاسع عشر •

وفي رأينا ان اهم ما يمثل هذه المرحلة من مراحل تطوره الايديولوجي والفني تتركز في روايته «فوما كوردييف» وروايته الاخرى «الثلاثة» وفي هـاتين الروايتين يختتم غوركي المرحلة الاولى من مراحل انتاجه الفني كأديب نورى • وعلى ما يبدو لنا ان اهم ما امتازت به هاتان الروايتان هو ذلك الجهد المتوتر الذى كرسه غوركي لعكس طبيعة النظام الرأسمالى وتعريته •

ولم يكتف غوركي بالوقوف موقفا سلبيا تجاه السلطة ولا اقتصر على تعرية الرأسمالية فحسب ، بل بدأ يناضل نضالا نشيطا من اجل دفع الحركة الثوريـة

والتحررية الروسية الى الامام ، ففي سنة ١٩٠٤ حين اندلعت نار الحرب الاستعمارية الروسية ـ اليابانية ، نجد غوركي يرفض هذه الحرب التي لم تحظ بشعبية من قبله ولا من قبل الثوريين الديمقراطيين • وينطلق رفضه هذا من منظوره الايجابي ، فهذه الحرب كانت من اوائل الحروب الاستعمارية التي وقعت في هذا العصر ، واشتعالها كان سببه تضارب المصالح الاستعمارية الروسية مع المصالح الاستعمارية اليابانية •

لقد جلبت هذه الحرب المزيد من الفقر والعذاب والحرمان للجماهير الروسية الكادحة التي كانت تتألف منها الطبقة العاملة ، هذه الطبقة التي ظلت تكافح ضد الظلم الاجتماعي والفروق الطبقية • وقد وصل هذا الكفاح الى اوجه في هذه الفترة نظرا لكون هذه الحرب قد صعدت موجة الفقر ، وادت الى تضعضع الوضع الاقتصادى ، وزادت من فقر العمال الذين انخفضت اجورهم بنسبة ٢٥٪ في الوقت الذى ازدادت فيه ارباح البرجوازية ـ الرأسمالية الى حد لم يسبق له مثيل من قبل • ومن ناحية اخرى فقد اعلنت السلطة النفير العام وجندت العمال والفلاحين وسخرت ما بقى منهم للعمل بمنتهى القسوة وبلا رحمة • وقد عملت كل هذه الاسباب مجتمعة على ايقاد الاحداث الثورية ، والى تفاقم واشتداد حدة الصراع بين اوساط الحياة الاجتماعية ، وشعرت السلطة بخطورة الوضع ،فلجأت الى اسلوب التساهل مع البرجوازية الليبرالية الى حد ما لتجذبها الى جانبها ، وفي هذه الفترة بدأ كما يقال ربيع البرجوازية الليبرالية ، التي اخذت تطالب بالدستور • وقد وضع المنشليك خطة لدعوة العمال الى الحفلات التي كان يقيمها الليبراليون من اجل ان يحمل العمال البرجوازية على اكتافهم ويقفون بها تجاه السلطة القيصرية باسم الشعب • ومن جانب اخر فقد جنت السلطة باستعمال مختلف اساليبها القذرة لاجل القضاء على الحركة الثورية وايقاف مدها الجارف• ففي سنة ١٩٠٤ اناطت السلطة الى جماعة من الكهنة والخساوسة مهمة البوليس السرى لمراقبة العمال • وفي بطرسبرج قامت تنظيمات اخرى على غرارها ، حاولت اطباق اسنانها على الحركة العمالية • وفي الايام الاولى من شهر كانون الثانى سنة ١٩٠٥ ، نظم العمال اضرابا واعتصموا داخل معمل «بريتلوفسكي» وقد ساند الاضراب بقية العمال في المعامل الاخرى •

وفي خضم هذه المعارك الهائلة وقف غوركي الى جانب الطبقة العاملة والشبيبة الروسية الجديدة ، وقد اشترك في ثورة سنة ١٩٠٥ وبذل جهودا جبارة في توسيع الآفاق السياسية لهذه الثورة الجبارة واغناها بفنه وبكفاحه . وفي هذه الفترة تصاعد وعيه الفكرى وهو ينظر بعمق نحو جميع الطبقات الاجتماعية الروسية ، ودرس اخلاقيتهم وسط نيران معارك الثورة ، فحصل من مراقبته هذه على تجارب قاسية ، وخرج نتيجة هذه التجارب والمآسي التي لاقاها شعبه بعقيدة راسخة وايمان لا يتزعزع بان الطبقة العاملة هي المعبر الحقيقي عن آمال وتطلعات الشعب الروسي .

ونما غوركي مع نمو شعبه ، وبمقدار ما كانت الثورة تنمو وتتسع وتتطور فقد كان يشترك فيها بشكل اكثر فعالية ونشاطا . ويمكننا ان نقرر بان غوركي استطاع في هذه الفترة ان يتخلص من بعض اوهامه الرومانسية ، هذه الرومانسية التي املتها عليه ظروف حياته الشاقة الصارمة وهو طفل وفتى يجوب ارض بلاده بحثا وراء الرغيف ، كما وكشفت الثورة امامه بشكل اكثر جلاء مرارة الواقع الذى كانت تعيشه الطبقة العاملة ، هذه الطبقة التي تبنى رفع شعاراتها وآمن باصالة هذه الشعارات ، وفي شهر كانون الثاني ١٩٠٥ سافر غوركي الى بطرسبرج ليحاول جاهدا تلافي اطلاق النار بوحشية على العمال ، لانه كان يتوقع من السلطة القيصرية استعدادها لتنظيم مجزرة لذبح العمال ، الذين كانت حركتهم الثورية قد وصلت الى حد الانفجار . وفي بطرسبرج اجتمع مع بعض زملائه لمقابلة القيصر وكان احد اعضاء الوفد البارزين . وفي المقابلة التي تمت بين غوركي وجماعته ، وعد وزير الداخلية وممثلو مجلس الوزراء بعدم لجوئهم الى سفك الدماء .

وفي يوم ٩ كانون الثاني سنة ١٩٠٥ خرج اكثر من اربعة الاف عامل من عمال بطرسبرج في موكب سلمي متجهين الى قصر القيصر الشتوى ، وبأمر القيصر وجه البوليس بنادقهم نحو المتظاهرين العزل واطلقوا عليهم النار فسقط ما يزيد على الالف شهيد وجرح اكثر من الفي شخص بينهم النساء والاطفال .

واجتاحت موجة الغضب الجماهير الكادحة فاعلنت عن سخطها قائلة : لم يعد لدينا قيصر بعد الان ، وفي اليوم العاشر حدثت معركة بالاسلحة والبنادق بين

العمال والجيش ، وفي نفس اليوم حدث اضراب عام في موسكو ، كما حـــدثت اضرابات ومظاهرات مماثلة في معظم مدن روسيا الاخرى •

ومنذ هذا اليوم فقد اعتبرت الطبقة العاملة نفسها هي القوة الوحيـــــدة القادرة على الاطاحة بالحكم القيصرى وعلى زحزحة البرجوازية الليبرالية عـــن مكانها الذى كانت تحتله بين الفلاحين ، كما وتبنت حتى النهايـــة قضية تنظيف الطريق امام الثورة البرجوازية الديمقراطية والسير بها قدما للاتجاه نحو الثورة الاشتراكيـة •

وفي يوم الاحد الدامي كان غوركي في شوارع بطرسبرج ، فرأى كيف اعدم ابناء شعبه رميا بالرصاص ، فهزته هذه الثورة واثارت سخطه تلك الدمـــاء التي اغرقت الشوارع فوجه نداءاته الحارة مستنهضا كل ابنـــاء الشعب الروسي لاستنكار هذه المذبحة الدامية • وطالب الرأى العام العالمي والحكومات الاوربيـة لرفع صوتها ضد الحكومة القيصرية ووصمها بالخزى والعار لانها لم تتورع عن قتل مئات الابرياء ، والى ادانة هذه الجريمة البشعة • فكتب يقول : « ان استمرار مثل هذا النظام سوف لا يمكننا احتماله ، ونحن ندعوا جميع المواطنين الروس للاسراع نحو الوحدة ، وخوض النضال العنيف ضد السلطة»(٦) •

وارعبت هذه النداءات السلطة القيصرية الغاشمة فاعتبرته مذنبا امام السلطة وخائنا لها ، فاسرعت بالقاء القبض عليه وسجنته في قلعة بطرسبرج • وقد احدث سجنه ضجة كبيرة بين الطلائع الثورية الروسية ، فبدأت بالكفاح من اجل اطلاق سراحه • وفي احدى التمثيليات التي عرضت في كييف ، وعنوانها (المصطافون) اخذ النظارة يهتفون «يعيش غوركي» ، «تحيا الحرية» تسقط السلطة ، ووزعت بين النظارة مناشير كتب فيها : « حرية غوركي ، كفاح من اجل الارادة ، والكلمة المطربة الحرة » وفي قازان وزعت صحائف تنادى بالحرية لغوركي ، وقد كتب فيها : «مثل هؤلاء الناس ضروريون للشعب الروسي» كما وزع الكتاب مناشـير اجتاحت كامواج البحر اجزاء روسيا ، وهي تحمل احتجاجا عنيفا ضد السلطـة لسجنها اديب الشعب •

---

(٦) م•غوركي • بواكير الادب الاجتماعي الثوري ، موســـكو ١٩٣٨ ، ص ١٥ (بالروسية) •

وفي كثير من مدن اوربا الغربية ، اقيمت اجتماعات احتجاج ضد القاء القبض عليه وسجنه ، وقد كتب الاديب الفرنسي المعروف اناتول فرانس قائلا : « من كل قلبي فاني انضم الى حركة غوركي المفيدة ، فالمثقفون في جنوب روسيا ، ومثقفوا المانيا وايطاليا وفرنسا ينضمون الى عمل غوركي ـ وعمل غوركي عملنا جميعا ـ وان موهوبا مثل غوركي ينتمي اليه العالم اجمع ، والعالم اجمع مهتم بتحرره »(٧) .

وهكذا نرى بان جميع التقدميين في العالم ظلوا يطالبون بحريته . وبقيت السلطة تستلم برقيات الاحتجاج الشديدة اللهجة التي عبرت فيها القوى الخيرة في العالم عن شجبها واستنكارها لسجن هذا الكاتب العظيم ، وفي شباط سنة ١٩٠٥ اضطرت السلطة الى اطلاق سراحه بكفالة مالية مقدارها عشرة الاف روبل ونفيه الى مدينة ريكا حتى يحين موعد محاكمته ، وفي رسالة وجهها غوركي الى بياتينسكوم كتب قائلا : «لو عقدت المحكمة ، فسوف ادينها ، واشجب حكمها ، وهذه الادانة ستكون رائعة بالنسبة لي ، وساوضح لاوربا لماذا انا ثورى بالذات ، وما هي البواعث الحقيقية لاعتبار النظام مجرما ، النظام الذى قاد المجزرة الرهيبة لابادة المواطنين الروس المسالمين العزل ومن ضمنهم الاطفال »(٨) .

وفي ربيع سنة ١٩٠٥ عندما مرت تلك اللحظات التي لم يستطع فيها العمال والفلاحون اسقاط السلطة القيصرية ، بينما نجحت السلطة آنذاك في ان تقمع الثورة وتكبح جماحها اصبح من الضرورى في مثل هذه الظروف اصدار جريدة تحمل انباء الحركة الثورية ، كما يمكن ان تنضم اليها اوسع الجماهير الكادحة . وبمشاركة غوركي الفعالة ظهر العدد الاول من جريدة (الحياة الجديدة) من بطرسبرج من يوم ٢٧ اكتوبر الى الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٥ .

واشتركت مؤلفات غوركي ومقالاته اشتراكا فعالا في تعميق الثورة واضرام

---

(٧) مجلة الثقافة الادبية : اناتول فرانس . موسكو ١٩٣٦ ، عدد ١٣ ص ٦ ص ٦ (بالروسية) .

(٨) م . غوركي ، من رسالة وجهها الى ك . ب . بياتينيسكوم . موسكو ١٩٥٣، ص ١٧٧ ، (بالروسية) .

لهيبها • فقد رأى غوركي عن كتب تلك البطولات الرائعة التي قامت بها الطبقة العاملة في فترة قيام الانتفاضة المسلحة ، وبعد مرور سنين طويلة على هذه الانتفاضة كتب غوركي «ميتيا بأفلوف» وفيها حدثنا عن احد العمال الابطال الذى كان نموذجا لمئات العمال الشجعان ولتلك الطلائع الثورية التي اشتركت بالانتفاضة بجراة واقدام ونكران ذات • ففي تلك الايام العابسة المتجهمة العنيفة القاسية من عام ١٩٠٥ وفي ايام انتفاضة موسكو المسلحة سافر ميتيا بافلوف من بطرسبرج الى موسكو وهو يحمل معه صندوقا كبيرا من الكبسولات المتفجرة ، والزئبق المتفرقع ، وقد لف على صدره المتفجرات ، وقد لاحظه تيجيفسكي ، لان جسده كان يبدو ضخما للغاية لشدة ما لف عليه من قنابل ومتفجرات ، فطلب تيجيفسكي من بافلوف الدخول عنده في الغرفة ، فجلس بافلوف على الارض ، وقد ازرق وجهه واتسعت حدقتا عينيه فسأله تيجيفسكي قائلا : كان يمكن ان يموت الناس وهم يضحون بانفسهم فأجابه تيجيفسكي قائلا : هل جننت يا بافلوف ؟ فقد كان من الممكن ان تسقط مغشيا عليك في الطريق وتذكر اذ ذاك ماذا سيحدث بالنسبة لك ؟

فتنفس بافلوف واجاب بذنب

لسقطت المتفرقعات والكبسولات المتفجرة ايضا •

ورغم خطورة الموقف فقد هرب منه بافلوف بشكل عجيب وبدون كلمة •

ان هذا البطل الجرىء الذى انتزعته غوركي من بين عشرات بل مئات الابطال الذين كانت تضمهم ثورة سنة ١٩٠٥ ، ربما كان غوركي قد رأه او لم يره ، ولكنه على كل حال كان موجودا في روسيا آنذاك وهو موجود حاليا ، يحيا بين صفوف شعبة في كل زمان ومكان ، وهو موجود كفدائي في فلسطين وفيتنام وكمبوديا وتشيلى • ومثل هؤلاء الابطال هم الذين يصنعون الثورة وهم الذين يكتبون التاريخ وعلى جماجمهم يقيمون امجاد امتهم ، وبسواعدهم المفتولة يطرقون ابواب الحرية ، ليدخلها ركب الانسانية المتحرر • وغوركي نفسه كان احد هؤلاء الابطال الذين مهدوا السبيل امام الحركات الثورية والتحررية بكفاحه وكتاباته • وهو الذى استغل كل ما يملك من امكانيات ووسائل لتسهيل قيام الثورة وتطويرها وانتشارها ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، فقد ارتبط غوركي

ارتباطا وثيقا بحركة الطبقة العاملة • ففي مقالاته التي كتبها سنة ١٩٠٥ عبّر غوركي بشكل سافر ومكشوف عن الدور التاريخي للبروليتاريا • ونادى بالاشتراكية ، وركز على الاهداف الاساسية والنتائج الخطيرة التي سينجم عنها النضال الطبقي الذى يخوضه «البروليتاريوون الروس وهم يمشون الى الامام نحو النصر الحاسم» ولذلك فان وحدة هذه الطبقة وقوتها المعنوية وابداعاتها ، ستصل بالطبقة العاملة الى ذروة الخلق والانشاء في روسيا في المستقبل • انا اقول الحقيقة ، وسيثبت التاريخ ويؤكد هذه الحقيقة بامانه وبلا تحيز » •

وفي هذه السنة بالذات اشار غوركي بالمغزى لكفاح الشعب الروسي من اجل تحرره ، فكتب الى اناتول فرانس قائلا : « انا اعرف الشعب الروسي ، فانا لا اميل الى المبالغة في جدارته ، ولكنني اعتقد وانا واثق ، بان هذا الشعب يمكنه ان ينفث في الارض الروح والحياة ، وشيء ما فريد في نوعه وعميق وبعيد الغور ، شيء ما مهم لا جل الجميع » (٩) •

وادرك غوركي بان الثورة الروسية بما تحمل من خصائص ، وبما تمتاز به من آفاق تطورية واسعة ستجعل لها امتدادات اخرى ، نظرا لان الاسلوب الذى تطورت به هذه الثورة ، جعلها تختلف اختلافا عميقا عن الثورات البرجوازية في الغرب • فهي منذ بدايتها ، قد حسمت العديد من المشاكل الثورية التقدمية ، ذلك لانها من الاساس كانت ذات منظور تقدمي • وقد كتب غوركي الى المؤرخ الفرنسي (اولار) قائلا : «الثورة الروسية سوف تتطور ببطيء ولمدة طويلة ، ولكنها ستنتهي بانتصار الشعب ، ونحن اقتفينا اثر ثورتكم القديمة ، واننا قطعنا رؤوس الطفيليات الهيدولكية ، ولكننا سوف لا تسعي في المستقبل حتى الى تقليد فرنسا العظيمة » • (١٠)

وهكذا فاننا نرى بان غوركي كان يعتقد بان وطنه غدا مركزا للحركة التحررية العالمية ، وهو ذاته كان ثائرا من الدرجة الاولى ، لا على الصعيد السياسي فحسب

---

(٩) م • غوركي : بواكير الادب الاجتماعي الثوري • موسكو ١٩٣٨ ، ص ٣٩ (بالروسية) •

(١٠) م • غوركي : بواكير الادب الاجتماعي الثورى • موسكو ١٩٣٨ ، ص ٥٤ (بالروسية) •

بل على الصعيد الادبي ايضا ، فلا عجب اذا ما رأيناه يلتزم بالخط الثورى للادب المتحرر ويكافح طول حياته من اجل ارساء قواعد هذا الادب ، نظريا وعمليا • فمؤلفاته الكاملة نموذجا حيا للأدب الثورى الملتزم • فهو كان يرى « بان الفنان الذى ينطلق من ملاحظة الحياة وتناقضاتها يمكنه ان يخلق انتاجا ادبيا واقعيا اصيلا •• » (١١) •

مما لاشك فيه ان غوركي كان خير من درس حياة شعبه ، وفهم بعمق نقاط الضعف والقوة في مجتمعه ، وتعرف على سلوك الطبقات الاجتماعية المختلفة في بلاده في مرحلة ثورة سنة ١٩٠٥ ، واستطاع خلال ايامها السود الكالحة ان يشخص الوجوه الحقيقية لممثلي هذه الطبقات في روسيا ، هذا بالاضافة الى ان هذه الثورة كانت بحد ذاتها امتحانا فريدا كشف عن حقيقة الاتجاهات الادبية المختلفة ، فمند داية هذا القرن العاصف كشفت الرجعية عن حقيقتها بشكل اكثر جلاء ، واعنف حدة ، حين دفعت الى الميدان صناديدها من ممثلي الادب المنحط ، وبالذات في الايام التي رفعت فيها جميع البلدان المضطهدة رأسها بعد يوم الاحد الدامي لتخوض معركة الكفاح الحاسم ضد السلطات الحاكمة • ويعتبر غوركي احد الذين شاركوا مشاركة فعالة وايجابية في الثورة ، وفي الوقوف الى صف البروليتاريا وقاد الكفاح ضد الاتجاهات الادبية المنحطة وممثليها ، ووقف أمامهم وجها لوجه ليحاربهم كأعداء منافقين قدامى ، تعرف على هوايتهم الحقيقية منذ زمن ، وهم الذين كانوا يمثلون الادب الفردى والادب الصوفي المتعفن كما كانوا يمثلون مذهب التشاؤم، ومذهب الشك الارتياب • وكل هؤلاء كانوا يمثلون متطلبات المودة الرجعية وكل مشعوذى الادب المنحط ، الذين ناهضوا الثورات الشعبية ودافعوا عن مواقع الطبقات الحاكمة • ولذلك فقد وقف غوركي ليحاربهم حربا لا هوادة فيها • ففي اهجيته الشهيرة التى عنوانها « الحكيم » والتي الفها سنة ١٩٠٦ مثلا فان غوركي الكاتب البروليتارى العظيم ، فضح فيها الفلسفة الرجعية ، وكشف عن اخلاقيتها وعلم جمالها والاساليب الملتوية التي تتطلبها مودة الفلسفة الرجعية ، وابرز حقيقة موقف الشعب من هذه الشعوذة •

وعلينا ان نذكر هنا بان من أهم القضايا الحيوية الملحة التي فرضها واقع

---

(١١) زياد الملا : مجلة الموقف الادبى • دمشق ١٩٧٢ ، العدد ١٢ص ١١٨ •

ثورة سنة ١٩٠٥ هو الكفاح ضد البرجوازية الليبرالية ، هذه البرجوازية التي كان اخوف مايخوفها هو توسع الثورة وانتشارها ، فاتجهت الى تصفية مشاكلها مع السلطة القيصرية • لتشترك معها سوية لضرب الحركة الشعبية والقضاء عليها نهائيا • وبحماس فريد تسلل غوركي بروحه الملتهبة ليكتب مقالاته وتحقيقاته الصحفية ومؤلفاته الفنية،ليساعد البروليتاريا في كفاحها ضدالبرجوازية الليبرالية • وفي فترة اندلاع الثورة ايضا طبع غوركي اهجيته التي عنوانها « عن الرصاصي » وفي هذه الاهجية منحنا غوركي نموذجا صارخا للشخصية البرجوازية الليبرالية ، وقد اتخذ من اللون الرصاصي رمزا للبورجوازية الرجعية ومن اللون الاسود رمزا للرجعية ومن اللون الاحمر رمزا للكادحين الثوريين • وصور لنا فيها التناقضات العميقة القائمة بين هذه النماذج التي تمثل كل منها طبقة اجتماعية معينة من طبقات المجتمع ، وذا تمرة جرى نقاش حاد بين الاسود والاحمر ، وقد اكد الاسود أن بامكانه ان يستعبد العالم عن طريق الحديد والذهب والكذب ، بينما كان الاحمر يرى ، بان الحياة حرة وجميلة ، ولذلك فهو يحلم بالسعادة لجميع الناس •

ووقف الرصاصي يتململ بين الاسود والاحمر ، وهو يحاول ان يتكيف مع تطورات الظروف المحيطة به بكل مايملك من قوة • وهو يهمس مع نفسه قائلا : اذا ظفر الاسود بالسلطة فانيسأحاول بحذر وانتباه ان أثير الاحمر ضده وأحرضه عليه قائلا : انظر كيف تنمو الرجعية •

اما اذا ظفر الاحمر في السيطرة على الحكم ، فاني سأحرض الاسود ضده قائلا : احترس : ان الفوضوية تتطور وتنتشر ،

وهنا يبرز لنا الكاتب اللون الرصاصي كنموذج عار ، يعبر عن حقيقة الافكار البرجوازية الليبرالية ، وهو يرمز بالسلوبه الشيق الى مواقفها الانتهازية وتذبذبها ، فهي دائما تقف موقفا وسطا بين طرفين متخاصمين ، موقفا يشوبه الغموض ، ويتسم بالبلبلة ، منتظرا النتائج التي سينجم عنها الصراع ليحسم القضية في صالحه • وانه رغم موقفه الانتهازى هذا فقدكان ميالا بقلبه نحوالاسود ،الذى نصحه ليخدع الناس عن طريق البحث عن شيء لا يملكه هؤلاء الناس ليمنحهم القليل منه ودون المستوى

الذى يحملون به ، ومع ذلك فهو سيتمكن من تهدأتهم وتلطيف الاجواء بينه وبينهم وبينه وبين الاحمر اذا اقتضت مصلحته ذلك .

ان غوركي الاديب البروليتارى الرائع ، قد عرف جيدا اى دور عظيم يمن ان يلعبه الهجاء ، في فترة كانت فيها الطبقات الاجتماعية تقف موقف المتصلب في كفاحها القاسي العنيف بعضها ضد البعض الآخر ، هذه الفترة التي شارك بالكفاح فيها الملايين من جماهير الشعب ، فالسوط ، والجلد ، والتنديد ، والهجاء ، والهزء ، والضحك قد ازاحت اللثام عن وجه البورجوازية وجردتها عارية على طبيعتها ، واظهرت حقيقة السادة ، هذا بالاضافة الى ان مثل هذه الاهاجي ستقلب حياة السادة الاعداء الى ليل اسود داج . فالنقد الفكاهي والضحك والهزل هي بمثابة عوامل مساعدة تربي في الشعب روح التفوق على السلطات الحاكمة . ويؤكد هذه الحقيقة الكاتب الروسي المعروف كيرتسن حين كتب يقول : « الضحك ـ بالذات ـ واحد من اقوى الاسلحة ضد الجميع ، فاى نهاية ستبلغ ، وحياة من ستذهب ، وعلى من ستقبض ايضا . فالله أعلم على من ، اعلى اطلال مهمة ، ام انها ستحول دون نمو الحياة الغضة النضرة ، وترعب رغيف الضعفاء» (١٢) .

وفي سنة ١٩٠٦ صدرت ثلاث مجلات هزلية هجائية هي مجلة « البعبع » ومجلة « البريد الجهنمي » ومجلة « الابرة » ولم يقف غوركي الى حد المشاركة النشيطة بالكتابة في هذه المجلات فحسب ، بل جذب الى العمل فيها زملاءه وفي مجلة « البريد الجهنمي » نشر غوركي قصته « الحكيم » كما نشر فيها كذلك « الانظمة والاقوال المأثورة » التي استهزء فيها بمرارة وحدة بالسياسة الرجعية واستخف بأسلوب فكاهي بالسلطة القيصرية وبشر بالتحضير لاقصائهم ونفيهم الى بيوتهم .

ومن أهم مقالاته الاخرى التي نشرها في مرحلة الثورة الروسية الاولى هي مقالته التي نشرها في جريدة الحياة الجديدة ، والتي عنوانها « ملاحظات عن البورجوازية الصغيرة » ، وفي مقالته هذه اهتم بابرازهم الملامح التي تتميز فيها البورجوازية الصغيرة . وفيها عرض امامنا اهم النزعات الضيقة والاتجاهات السياسية

---

(١٢) أ . ى كيرتسن : المؤلفات الكاملة ، الجزء ٩ . موسكو ١٩١٩ ، ص ١١٨ (بالروسية) .

والاجتماعية والفلسفية والفنية والمشاكل التي كان يضطرب في دوامتها المجتمع الروسي في تلك المرحلة ، واستنادا على وجهة نظره الثورية فقد حدثنا غوركي عن التاريخ الفكرى العام في بلاده بعد حركة الاصلاح التى قامت في روسيا سنة ١٨٦١ حتى سنة ١٩٠٥ .

وأهم نقطة ركز عليها اهتمامه هي مشكلة التعاون والعلاقة المتبادلة بين الشعب والطبقة الحاكمة ، والذى لاحظناه ان غوركي في مقاله هذا كان ينساب متغلغلا ليخترق صفوف الطبقة العاملة ويقف الى جانبها ، متجها حتى النهاية لاظهار التناقضات الاجتماعية بينها وبين البرجوازية والرأسمالية . وسعى جاهدا لكي يوضح لنا بالحاح وبأسلوب موضوعي مقنع ، انه من غير الممكن ان تحدث أى مهادنة او سلام او اتفاق بين الطبقات المتصارعة والمتناقضة المصالح . كما ظل هو ذاته في مقاله هذا يؤكد قناعته وايمانه العميق الحار بالارادة الخلاقة للقوى العاملة المستعبدة آنذاك ولكنها رغم استرقاقها ستبقى اقوى طبقة قادرة على تغيير مجرى التاريخ في روسيا . ومما لاريب فيه ، ان مقاله هذا كان بمثابة دعوة حارة الى الثورة والكفاح ضد الجمود الفلسفي . وضد الفلاسفة الخاملين ، كما نلاحظ في هذا المقال تمجيد للشخص الفعال الذى يناضل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية وتوطيد أسسها ، وقد توصل هذا الكاتب العظيم الى توضيح الاسس والاسباب الحقيقية للتناقضات القائمة في المجتمع البرجوازي اذ كتب يقول : « الحياة كما هو معروف » عنها ، هو كفاح السادة من اجل السلطة ـ والعبيد من أجل التحرر من الظلم واستعباد السلطة ـ فالصراعات والتناقضات بين الطبقات بلا هدنة . وفي خضم هذا الصراع الحقيقي الضارى ، تلعب البورجوازية الصغيرة دور الخيانة انهم ابطال البورجوزية الليبرالية ، فهي أخت حقيقية للرصاصي ولايفان ايفانوفج ، والذين يقفون ضد المواقف الحزبية الواضحة ، وهم يتطلعون الى اخفاء التناقضات وتلويثها . وهم يرون ان المهادنة والصلح غير ممكن ، وهم يخجلون من السير الى اليمين ، والجهة اليسرى مخيفة ، والمنطقة التي يتزاحمون فيها اصبحت ضيقة مرصوصة ، فالاعداء جميعهم أصبح واحدهم قريب من الآخر . ولذلك فالبرجوازية الصغيرة تحاول دائما ان تعرقل سير عملية التطور الطبقي للتناقضات

والصراعات الطبقية ، (١٣) .

وانطلاقا من المواقع الثورية التي كان يقف عليها غوركي ليرى من خلال منظوره الشفاف ، الحقيقة وهي عارية ، فقد نجح في ان يحلل تحليلا واقعيا الطبيعة الاجتماعية للبورجوازية الصغيرة التي كانت تعني في نظره ، المستغلين والمستثمرين وممثليهم . وان المبادىء والاسس التى تعزف البورجوازية الصغيرة على انغامها ، هو تشويه تطور الاحساس بالملكية ، فهي دائما تحاول ان تسير في خط متوتر لبعث الطمأنينة في أعماقها ، بكونها هي الوحيدة صاحبة الحق في الملكية والاستغلال ، وهي تشعر برعب اسود تجاه كل من يمكن الى هذا الحد او ذاك ان يستفزها في هذه الناحية . وتجفل فزعه . اذ تصورت ان هناك من يعمل على اثارة قلقها فتنزع بالحاح وبسرعة للكشف عن نفسها كليا . وبان تذبذبها يشكل اختلالا في اتزانها النفسي ، ويجعلها تنظر للناس والحياة نظرة تخالف نظرتها الاعتيادية . الا ان كشف البورجوازية عن نفسها ، ليس لاجل افهام الاخرين بما اتت به من افكار جديدة وغير معروفة فقط ، بل لاجل ان تجد ما يسوغ لها تبرير نفسها . وعلى حد قول غوركي ـ لاجل ان تبرر مواقفها السلبية من معارك الحياة .

وحين عرى غوركي البورجوازية ومواقفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ومناهضتها لكل حركة تشعر انها من الممكن ان تهدد مصالحها ، انما اراد من وراء ذلك ان يصل بنا الى المواقف الايديولوجية للبورجوازية تجاه الادب والفن . وقد فضح غوركي عبر مقالاته وقصصه التيارات البورجوازية الفكرية المنحلة واكد ان ممثلي الادب المنحط سعوا جاهدين الى غرس مواعظهم وخطبهم وشعوذتهم في اعماق الفن ، وان ينقلوا ايديولوجيتهم واضاليلهم الى الفلسفة ، وتاقوا الى تشكيل قواعد علم الجمال القائمة على الزخارف الجميلة والتعاريش البهية والاستغراق في زوايا التصرف القائمة لتحل هذه القواعد محل علم الجمال الواقعي .

وبغض النظر عن جمال الكلمات ورنينها الموسيقي الجميل ، فان ممثلي

---

(١٣) م . غوركي : المؤلفات الثورية المبكرة . موسكو ١٩٣٨ ، ص ٥٩

الاتجاه المنحط ، كانوا يستهدفون من وراء كل هذا ، تأكيد خدمتهم للايديولوجيات البورجوازية في الوقت الذى حاول فيه ايديولوجيوا ومفكروا الطبقة الحاكمة ان يعيدوا النظر في تاريخ الثقافة الروسية ، وتعريض هذه الثقافة للفحص ، ومن هذه الارضية انطلق انصار المذهب المنحط والبورجوازيون الليبراليون والنقاد التحريفيون ليستندوا في عمليتهم هذه على الملامح التاريخية التي حددها الادب الكلاسيكي الروسي ، وقد اتجهوا الى الاستناد على هذا النوع من الادب ، ليوضحوا على ضوئه ، بان قوة الشعب الروسي تكمن في صبره فقط ، فهم يعيشون غير مبالين بتنظيم حياتهم الاجتماعية لانهم يحلمون فقط بالجنة الموجودة في السماء ، ولذلك فهم يتحملون الالم ويكابدون العذاب على الارض صامتين بلا شكوى ولا تذمر .

وفي كتاب «ملاحظات عن البورجوازية» نهض غوركي لينتفض بكل ما يملك من قوة ليقف ضد هذه الافكار الزائفة التي اوردها النقاد التحريفيون وانصار مذهب الفن المنحط . البورجوازيون الليبراليون للتقليل من قيمة الشعب الروسي ، وفند بايديولوجيته الموضوعية بطلان هذه التصورات الخاطئة عن طبيعة ابناء شعبه ، واستبسل بالدفاع عن الخصائص الرائعة لجماهير امته ، وراح يعيد الى ذاكرة هؤلاء المغفلين الحمقى اسماء كوكبة لامعة من الادباء الروس ، الذين نبغوا من بين اعمق اعماق الشعب الروسي ، وهم بالذات لومونسوف وكولتسوف ونيكيتينا وسوربكوف ، فهؤلاء الفنانون الثوار الفلاسفة ، عكسوا في اشعارهم ملامح شعبهم الباسل ، واوضحوا عبر اشعارهم بان الشعب الروسي كافح دائما وابدا من اجل حريته وتحرره ، واتجه نحو محاربة الظلم والطغيان لانه كان يدرك بوعيه ان الحرية لا تشترى الا بالتضحية والفداء ، ومن خلال غبار تلك المناقشات العنيفة الحادة التي قامت بين غوركي وبين انصار مذهب الفن المنحط والبورجوازيين الليبراليين التحريفيين ، اشار غوركي الى ما امتاز به تاريخ الادب الكلاسيكي الروسي ، من قصر النظر وضيق الأفق ، الا اننا نرى هنا بان غوركي قد بالغ في بعض الاحيان في انتقاداته لهذا الادب ، كما انه وقع في احيان اخرى باخطاء عميقة في تحديد آفاق هذا الادب الضيقة . وفي اعتقادنا ان الادب الروسي وان كان يتسم بايديولوجيته الرجعيا احيانا ، الا انه كان مع ذلك يحمل في كثيرمن

الاحيان سمات انسانية عامة .

ان الكفاح من اجل خلق فن بطولي جديد ، يعكس المرحلة الجديدة من مراحل تطور الادب البروليتارى المتحرر . كان على رأس المهام الاساسية التي كافح من اجلها ادباء هذه المرحلة في روسيا وفي مقدمتهم غوركي ، الذى اخذ بنظر الاعتبار الاهمية الفريدة القصوى للادب البروليتارى ، خلال عملية سير تطوره في هذه المرحلة ، وناضل لتثبيت دعائمه المبدأية على اسس واقعية راسخة ، وقد نجح في مهمته هذه بعد ان ظل يقاوم ويقاوم دون ملل جميع التيارات والاتجاهات الانتهازية التي تصدت لهذه الحركة الادبية الجديدة التي تزعمها هو بالذات .

لقد دخل غوركي تاريخ الادب الانساني ، وذلك لانه عرف عن خبرة حياة ابناء شعبه وكان يفكر بالملايين التي كانت تلاقي شتى انواع الظلم والاضطهاد الطبقي نتيجة لسيطرة النظام الرأسمالى . ومن هنا تنطلق واقعية غوركي ونظرته الموضوعية المتكاملة الى العالم المحيط به ، وادراكه لواقعه كأديب تقدمي عرف واجبه تجاه شعبه وتجاه مجتمعه الذى واكب حركته وشارك في دفعها نحو التطور مشاركة بناءة فعالة ، يقول عبدالعظيم انيس : « فمن واجب الاديب الواقعي ان يكون ذا نظرة متكاملة الى العالم الذى يحيا في داخله ، نظرة تعبر عن فهم مترابط لهذا الكون واطواره ، وبشكل خاص ينبغي ان يتضح هذا جليا في فهمه لمجتمعه الخاص وتجاوبه معه »(١٤) . ومن المؤكد ان غوركي كان اعظم بكثير مما حتمه الاستاذ عبدالعظيم انيس على الاديب الواقعي ، وهنا تكمن سر مكانته العظيمة التي احتلها بين معاصريه من الادباء . وفي اول لقاء تم بينه وبين تولستوى عملاق الفن العالمي ، كتب تولستوى عنه هذه الملاحظة : « لقد كان غوركي قد تكلم بشكل جيد جدا ، وقد اعجبني ، فهو شخصية اصيلة معاصرة من الشعب »(١٥) .

---

(١٤) عبدالعظيم انيس ، ومحمود امين العالم ، كتاب في الثقافة المصرية . القاهرة ١٩٥٥ ص ٢٨ .

(١٥) ل . ن . تولستوى . المؤلفات الكاملة . موسكو ١٩٣٥ ، الجزء ٥٤ ، ص٨.

ومن الكتاب العظام الذين عاصروا غوركي ، هو الكاتب الروسي الشهير جيخوف • وقد ثمن تثمينا عاليا المواهب الخلاقة التي امتاز بها غوركي ، ففي رسالة وجهها جيخوف الى (بوسية) في ٢٩ شباط سنة ١٩٠٠ كتب قائلا : «في غوركي اعظم الادباء»(١٦) • وقد قاس جيخوف ، غوركي بمقياس مواقفه ضد البورجوازية ، الا انه فنان البروليتاريا العظيم ، لم يقف عند هذه الاطر التي حددها جيخوف وغيره من ادباء عصره ونقادهم ، بل امتدت اهدافه الى آفاق ابعد • فانطلق في طريقه ليقيم اسس الادب الثورى • الا ان الطريق الذى سار فيه غوركي بقي غير معروف حتى النهاية ، سواء اكان ذلك بالنسبة لتولستوى ام بالنسبة لجيخوف • ذلك لان غوركي كان يختلف عنهما بكونه قد عكس في ادبه مرحلة جديدة من مراحل تطور مجتمعه ، وجسد بعمق واصالة وواقعية الكفاح الجديد الذى خاضته الطبقة العاملة من اجل التحرر والنصر ، ففي قصصه ومقالاته صور غوركي بواقعية وصدق مواقف الطلائع الثورية من البروليتاريا ومواقف طبقة البروليتاريا بالذات • في نضالها المجيد ضد الرأسمالية والبورجوازية والحكم القيصرى المستبد • وهو وحدة في هذه المرحلة قد نجح نجاحا تاما في خلق الشخوص الاصلية لابطال عصره • هذا الشخوص التي كان ابطالها هم العمال الروس التقدميون الذين كانوا يغذون السير للامام وللامام ابدا من اجل اقامة دعائم المبادىء الاشتراكية العظيمة •

وقد ايقظت كتابات غوركي الواقعية التجديدية المبكرة طبقة البروليتاريا في زمانه وكافح عبر مؤلفاته لدفع حركتهم التحررية نحو التطور والتصاعد والنمو، ومن خلال ابطال قصصه نفث فيهم روح التمرد ضد الظلم والطغيان ، من اجل بناء حياة افضل واسعد • يقول الناقد الروسي فوروفسكي : « لاجل ان تسمع الصوت الضعيف الذى ولدت عنه الحياة الجديدة ، فقد كان من الضرورى في تلك السنوات ان يصلح الشباب انفسهم من الداخل ، ولاجل خدمة الجماهير ، فقد كان من الضرورى ان يولد مثل هذا الفنان على الخصوص ، وقد ولد • انه

---

(١٦) أ• ب• جيخوف ، المؤلفات الكاملة : الرسائل • موسكو ١٩٤٩ ، الجزء ١٨ ص ٣٤٣ •

مكسيم غوركي، الذى ظهر في تلك اللحظات التي بدأ فيهـا مجتمعنا يتحطم بمجاميعه وفئاته المعروفة »[١٧] وظل غوركي يحمل رسالة الاديب الثـورى الملتزم ويطالب كل الادباء الخيرين في العالم بان يلتزموا بالسير في الخط الثورى الذى يكفل لشعوبهم التطور والتحرر • ومن اقواله المأثورة : « يموت الشخص والشعب خالد • ويخلد الشاعر متى هزت اغانيه قلب شعبه »[١٨] •

هذا هو غوركي الكاتب الواقعي الثورى المجدد • وان ما كتبته في بحثى هذا لا يمثل الا المرحلة المبكرة من اعمال هذا الكاتب العظيم ، اما بقية اعماله الادبيـة فسأفرد لها ابحاثا خاصة في المستقبل • فتحية لغوركي ، وتحية لكل اديب سخر ويسخر قلمه لخدمة الحقيقة ، ونشر الكلمة الحرة الثورية الشريفة •

---

(١٧) ف•ف• فوروفسكي : مقالات النقد الادبي • موسـكو ١٩٥٦ ص ٢٥٤ (بالروسية) •

(١٨) م• غوركي • معلومات وابحاث • موسكو ١٩٣٤ الجـزء الاول ص ٧٣ (بالروسية) •